

## قبائل المغرب الأقصى قبل الاستعمار إكراهات الترحال والنزوع إلى الاستقرار

محمد حبيدة<sup>(١)</sup>

شكلت حركة القبائل، مظهراً أساسياً من مظاهر الحياة اليومية في البوادي المغربية قبل الاستعمار. وقد ارتبطت هذه الحركة بطبيعة المعاش؛ إذ كان النشاط الرعوى هو عماد الاقتصاد في مناطق كثيرة من المغرب، ولاسيما في الجبال وفي أطراف الواحات، وحتى في بعض السهول الصالحة للزراعة. إن البحث عن الكلأ ومنابع الماء جعل أهالي البادية يتحركون باستمرار لتلبية حاجيات بهائمهم، وفي الوقت نفسه للقيام بعمليات تجارية، يبيعون على إثرها منتجاتهم الرعوية، ويحصلون على منتجات زراعية. ومن جهة أخرى حددت طبيعة العلاقة بين الدولة والقبائل تحركات بشرية كثيرة في اتجاهات جغرافية تحكمت فيها بالأساس سياسة التوازن القبلية التي نهجتها السلالات المتعاقبة على حكم المغرب. ويمكن التمييز بين نوعين كبيرين من التنقل، الأول اقتصادي رعوى مرتبط بنمط العيش وإكراه البيئة، ومنتظم حول محاور جغرافية معينة، ووفق فصول السنة، والثاني سياسي واجتماعي متصل بتقلبات الأحوال السياسية ونظام المجتمع.

### ١- تنقلات اقتصادية: البحث عن الكلأ

يبقى تنقل البشر في المجتمع المغربي قبل الاستعمار، كما في مجتمعات أخرى، مرتبطاً إلى حد كبير بحاجة البهائم إلى التنقل لأجل الرعى. فقد قال المؤرخ الفرنسي فيرناند بروديل عن حق، وهو يتحدث عن الاقتصاد الرعوى في حوض البحر الأبيض المتوسط: «كانت الحياة اليومية تجرى وراء العشب الهارب»<sup>(٢)</sup>. لقد شكل الرعى نشاطاً اقتصادياً

(١) أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن طفيل - القنيطرة.

(2) F. BRAUDEL, *Grammaire des civilisations*, Paris, 1993, p. 84.

راجع أيضاً للمؤلف نفسه:

*La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, 1966, t. 2 (La part du milieu), pp. 96 - 119.

رئيسيا لدى مجموعات كثيرة من القبائل فى بلاد المغرب الأقصى؛ إذ عاشت باستمرار أو فى أوقات معينة من السنة وهى تتحرك صحبة مواشيها باتجاه المراعى والمياه. ويمكن مقارنة حركة البشر والبهائم هذه من خلال ثلاثة أنماط رئيسية:

أولاً: حركة تردد يومية، على مساحة جغرافية محدودة، يتنقل ضمنها الرعاة بماشيتهم بين محلات إقامتهم والمراعى<sup>(١)</sup>. يقول القبطان الفرنسى بيريل الذى زار المغرب فى مطلع القرن التاسع عشر: «فى البوادرى يرى المرء كل يوم قطعانا كثيرة من الخيول والبقر والأغنام ترحل صباحا باتجاه المراعى، وتعود فى المساء إلى القرية»<sup>(٢)</sup>. هل من الممكن قياس المسافة التى كان يقطعها الناس وماشيتهم؟ هذا سؤال صعب جدا، لأن النصوص لا تمكن من ذلك. لكن بعض المؤشرات تتيح إثارة هذا الأمر. صحيح أن كل قرية أو مجموعة قرى كانت تتوفر على أراض رعوية مجاورة لتلبية الحاجيات الضرورية من الكلاً والماء. هذا ما تبينه نوازل العلمى: «الأراضى غير المزروعة، من مراعى وغابات، الموجودة على مقربة من القرية، تبقى مجالا للبهائم، تذهب إليها فى الصباح وتغادرها فى المساء»<sup>(٣)</sup>. لكن حجم هذه المسافة تبقى رهينة عنصريين رئيسيين، هما كمية الموارد الرعوية والمائية، وكمية الماشية. هذا يعنى، إذا كانت الموارد ضعيفة والمواشى كثيرة فإن التنقل يكتسى أهمية أكبر، إذ يقطع الناس صحبة بهائمهم مسافات كبيرة.

ويبقى من الصعب دائما قياس تنقل من هذا النوع. فنحن نعثر فى النصوص مثلا على عبارات من قبيل: «يبتعد الرعاة كثيرا عن قراهم بحثا عن أراض للرعى»<sup>(٤)</sup>، أو «تأتى المواشى من بعيد بحثا عن الماء»<sup>(٥)</sup>. لكن فيما يتصل بالمدن – لأن أهلها أيضا كانوا يمارسون الرعى الترددى – نعثر فى المقابل على بعض القياسات الدقيقة. ففي مدينة طنجة، شمال

(١) حول مفهوم حركة التردد اليومي للبشر والبهائم، راجع:

N. DUNARE, *Types traditionnels de vie pastorale dans les montagnes de l'Europe au Moyen Age et à l'époque moderne*, Clermont – Ferrand, 1984, p. 58.

(2) J. CAILLE, *Mission du capitaine Burel au Maroc en 1808*, Paris, 1953, p. 109

(3) عيسى العلمى، نساوژن، منشورات المجلس العلمى لفاس، الرباط، ١٩٨٣م، ج ٢، ص ٢٨٦ – ٢٨٧. انظر

أيضا محمد بن على المنهوى، فتاوى، مخطوط الخزانة الملكية، رقم ٤٥٠٠، ص ٨٣.

(4) أبو عيد الله السجلماسى، شرح العمل الفاسى، طبعة حجرية، فاس، ١٣١٧ هجرية، ص ١٠٤.

(5) A. BRIVES, *Voyage au Maroc, 1901 – 1907*, Alger, 1909, p. 574.

المغرب، كان الرعاة يقطعون مسافة مرحلة، أى ما يعادل خمسة كيلومترات ونصف الكيلو، لتمكين بهائمهم من الكلاً فى النواحي المجاورة للمدينة<sup>(1)</sup>.

ثانياً: حركة انتجاع، أو ما يسمى بـ «النجوع» فى لغة أهل المغرب الأقصى. وحركة التنقل هذه تكتسى أهمية كبيرة بالقياس إلى امتدادها الجغرافى، وتردها المنتظم والفصلى، شتاءً باتجاه السهول، وصيفاً باتجاه الجبال. وما يثير الانتباه فى حركة الانتجاع هذه، التى غالباً ما تتم بالتراضى بين القبائل، السهلية والجبلية، هو الانخراط الطبيعى فى نظام إيكولوجى يبنى على الحرص على الجمع بين هاجس الزراعة والحاجة إلى الرعى. ويظهر هذا الأمر فى احترام الرعاة، فيما يتعلق باتباع المسالك ومدة الإقامة داخل المرعى، للدورات الزراعية، خاصة فى المجالات الجبلية<sup>(2)</sup>.

لقد حظيت حركة الانتجاع فى بلاد المغرب بدراسات عديدة فى بداية القرن العشرين من طرف الكثير من الجغرافيين والإثنولوجيين الفرنسيين. أما البحوث التاريخية حول هذا الموضوع فقد ظلت قليلة جداً، مع العلم أن ظاهرة التنقل الرعى بين السهول والجبال قديمة قدم العلاقة بين الإنسان والمجال. فى هذا الصدد كتب الجغرافى الفرنسى جون سيليرى فى دراسة مرجعية حول «الانتجاع بجبال الأطلس المتوسط»: «هذه التنقلات الفصلية، التى دفعت القبائل مثل قبيلة بنى مكيلد فى الأطلس المتوسط لقطع أكثر من مائة كم بعيداً عن محلات إقامتهم، لا تكتسى فقط أهمية جغرافية فى الوقت الراهن (مطلع القرن العشرين)، وإنما تسلط الضوء على كل التاريخ المغربى»<sup>(3)</sup>. فالظاهرة إذن قديمة، ممتدة فى الزمن.

ليس فى نيتنا تقديم خريطة مفصلة لاتجاهات هذه التنقلات، فالأمر صعب جداً بالقياس إلى قلة المصادر، لكن من الممكن، وهذا أمر مهم جداً، رصد خصائصها الأساسية ومميزاتها الإقليمية. فالانتجاع يُظهر التكامل والتباين بين الأقاليم، من حيث مساحات الرعى، وحجم القطيع، وارتباط النشاط الرعى بالاقتصاد السوقى. وعلى مستوى التكامل،

(1) C. De LAVERONNE, Tanger sous l'occupation anglaise d'après une description anonyme de 1674, Paris, 1972, p. 26.

(2) E. LAOUST, «L'habitation chez les transhumants du Maroc central», Hespéris, 1930, pp. 247 - 249.

(3) J. CELERIER, «La transhumance dans le Moyen Atlas», Hespéris, 1927, p. 67.

يبرز وجهان من الانتجاع، انتجاع عمودى بين قمم الجبال وسفوحها، على النحو الذى يظهر فى الأطلسين المتوسط والكبير؛ إذ يقود الرعاة دوابهم، صعودا ونزولا، حسب الفصول<sup>(١)</sup>. ومن جهة ثانية، انتجاع أفقى بين الجبال والسهول الأطلنطية. ففى جبال الأطلس المتوسط، كانت هجرة المواشى الشتوية، المنتظمة والحيوية، تشكل عنصرا أساسيا فى النسق الإيكولوجى الجبلى. فالسهول، التى هى اليوم خصبة وذات مردودية فلاحية كبيرة، كانت، قبل الاستعمار، فى معظمها غير مزروعة، ومفتوحة للبهائم القادمة من الجبل. هذا ما يتضح مثلا فى منطقة الغرب على بعد أربعين كم من العاصمة الرباط. لقد كانت هذه المنطقة عبارة عن «أزغار» بلغة القبائل الأمازيغية، أى منتجع رعوى شتوى تأوى إليه قطعان قبائل أيت أومالو<sup>(٢)</sup>. وكذلك الشأن بالنسبة لسهل سايس بالقرب من مدينة فاس الذى كان يستقبل فى فصل الشتاء رعاة وبهائم قبائل كروان وبنى مطير<sup>(٣)</sup>.

أما فى الأطلس الكبير فقد كان الانتجاع مزدوجا. فعلى السفوح الشمالية كانت القبائل تذهب بأغنامها إلى سهل الحوز قرب مدينة مراكش<sup>(٤)</sup>، وأحيانا إلى أبعد من ذلك، حتى سهل الشاوية على الساحل الأطلنطى<sup>(٥)</sup>. بينما على السفوح الجنوبية، كان الرعاة ينزلون بدوابهم إلى سهل سوس جنوب المغرب<sup>(٦)</sup>.

وفى المقابل، كانت مراعى قمم الجبال، التى تحمل اسم «أكدال» فى اللغة المحلية، تستقبل مواشى السهول خلال فصل الصيف، منها ما يوفر الكلا لمواشى السهول الأطلنطية، كما هو الحال بالنسبة للسفوح الشمالية<sup>(٧)</sup>، ومنها ما يشبع حاجيات الدواب القادمة من

---

(1) J. DRESCH, Documents sur les genres de vie de montagne dans le massif central du Grand Atlas, Rabat, 1941, pp. 18 – 22 ; P. PASCON, Le Haouz de Marrakech, Rabat, 1983, p. 164 et n. 15, pp. 176 – 177.

(2) أبو القاسم الزيانى، الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا، تحقيق عبد الكريم الفيلاى، الرباط، ١٩٦٧م، ص ١٨٩.

(3) J. COULEAU, La paysannerie marocaine, Paris, 1968, p. 105.

(4) J. BERQUE, Les structures sociales du Haut-Atlas, Paris, 1955, pp. 105,108.

(5) J. BRIGNON, Histoire du Maroc, Paris, 1967, p. 260.

(6) جون دريش، المرجع نفسه، ص ٢٠.

(7) L. MASSIGNON, Le Maroc dans les premières années du XVIe siècle, Alger, 1906, p. 117.

المناطق شبه الصحراوية، الهاربة من جفاف الصيف، كما هو الشأن بخصوص السفوح الجنوبية المحتضنة لقبائل أيت عطا<sup>(1)</sup>.

ثالثا: حركة ترحال تنتقل على إثرها قبائل بأكملها، بمواشيهم وخيامهم وأمتعتهم، بحثا عن العشب والماء. يتعلق الأمر هنا، بطبيعة الحال، بالقبائل الرحل التي تعيش على إيقاع رحيل دائم ومنظم. فالرحل لا ينتقلون نحو وجهة معينة إلا بعد إرسال مجموعة من ذوى الخبرة للتعرف إلى الأماكن المقصودة ومواردها الطبيعية. وحينما تنفذ الإمكانات، أو يتغير الفصل، يحول الرحل وجهتهم نحو أراض أخرى أكثر سخاءً من حيث الكلاً والماء. هذا ما لاحظته القنصل الفرنسي المقيم بالمغرب في نهاية القرن الثامن عشر<sup>(2)</sup>.

إن ما يتضح من خلال هذه التنقلات، وتكررها في الزمان والمكان، هو رسمها في المدى الطويل لاتجاه جغرافي معين لحركة البشر من الجنوب والجنوب الشرقي إلى الشمال والشمال الغربي، بمعنى آخر من المناطق الجافة والشبه الصحراوية إلى المناطق الخصبة والأطلنطية، مروراً عبر جبال الأطلس. يستخلص المؤرخ الفرنسي هنرى تيراس هذه النتيجة بقوله: «هناك مراحل في تاريخ المغرب كانت فيها المناطق شبه الصحراوية عامرة بالسكان، لكن مجالها الجغرافي لم يكن يمنحها سوى موارد ضعيفة، إذ إن الجفاف وقلة المراعي كانت تحد من نمو قطعان الماشية، فتضطر القبائل للتنقل باتجاه المجالات الخصبة»<sup>(3)</sup>. ثم إن حركة التنقل البشرية هذه كانت قد سهلتها مجالات المرور، إذ إن جبال الأطلس المتوسط كانت قليلة الارتفاع وذات كثافة سكانية ضعيفة.

ويتضح هذا الواقع من خلال نماذج كثيرة. على سبيل المثال، قبائل زعير، المستقرة اليوم جنوب مدينة الرباط، وقبائل بني حسن شمال مدينة القنيطرة، هي في الأصل من قبائل المعقل العربية التي كانت، في نهاية العصر الوسيط، مستقرة في الجنوب الشرقي بالمنطقة شبه الصحراوية. لكنها بدأت في التحرك، منذ القرن السادس عشر باتجاه

---

(1) G. SPILLMAN, Les Aït Atta du Sahara et la pacification du Haut Dra, Rabat, 1936, pp. 20 – 21, 36 ; et, D. HART, Dadda Atta and his forty grand – sons. The socio – political organisation of Southern Morocco, Cambridge, 1981, pp. 5 – 6.

(2) L. CHENIER, Recherches historiques sur les Maures et l'histoire de l'empire du Maroc, Paris, 1787, t. 3, p. 102.

(3) H. TERRASSE, Histoire du Maroc, Casablanca, 1950, t. I, pp. 217 – 218.

الأطلس المتوسط. وشيئا فشيئا كبرت حركة التنقل هذه وأخذت أبعادا جغرافية هائلة. ففي القرن السابع عشر وصلت قبائل زعير إلى السهل المحاذي للمحيط الأطلنطي بجوار مدينة الرباط، كما تحركت قبائل بني حسن في مرحلة أولى باتجاه منطقة مكناس، ثم في مرحلة ثانية، خلال القرن الثامن عشر بالخصوص، إلى منطقة الغرب في الجهة الشمالية الغربية للبلاد<sup>(1)</sup>.

ونرصد الاتجاه نفسه بخصوص القبائل البربرية، على النحو الذي تُظهره اتحادية قبائل زمور. فقد كانت هذه القبائل الصنهاجية تستوطن في الأصل المناطق الشبه الصحراوية، لكنها انخرطت، هي الأخرى، تبعا لنشاطها الرعوى وحاجتها للمراعى الخصبة، في هذا التيار الجنوب شرقي/ الشمال غربي. ففي القرن الثامن عشر، خاصة بعد وفاة السلطان إسماعيل، اتجهت نحو مراعى وادي بهت، ومن ثم نحو غرب مدينة مكناس<sup>(2)</sup>.

ومن جهة أخرى، تمثل حركة الانتجاع والترحال، وإن كانت تندرج ضمن نظام إيكلوجي واقتصادي، عنصرا أساسيا في المعادلة السياسية والعسكرية لتاريخ المغرب قبل الاستعمار، كما سنرى في المحور الثاني من هذه المساهمة. كلما كانت السلطة المركزية قوية وتوفرت على جيش منظم وقلاع لمراقبة تحركات القبائل، كلما خففت من حدة تنقلاتها، أو استطاعت التحكم في اتجاهها، وفي المقابل كلما ضعفت الدولة، كلما اتسعت حركة القبائل وامتدت حتى السهول الأطلنطية.

ومع ذلك تبقى هذه الظاهرة نسبية. معنى ذلك أن التفسير القائل بضغط الرحل على المستقرين ضغطا مطلقا، وبالتعارض الدائم بين هؤلاء وأولئك، هو تفسير لا يصح في كل الحالات، لأن الترحال والاستقرار، كما أكد على ذلك المؤرخ الفرنسي لوسيان فيفر في كتابه «الأرض والتطور البشرى» مصطلحان يفتقران إلى الوضوح اللازم ويشوشان على تعقيد الواقع<sup>(3)</sup>. لقد أكدت البحوث التاريخية المرتبطة بمناطق محددة، كمنطقة تافيلالت في

(1) G. - S. COLIN, «Origine arabe des grands mouvements des populations berbères dans le Moyen Atlas», Hespéris, 1938, pp. 265 - 268.

(2) M. LESNE, «Les Zemmour. Essai d'histoire tribale», Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, 1966, n° 2, pp. 97 - 132.

(3) L. FEBVRE, La terre et l'évolution humaine. Introduction géographique à l'histoire, Paris, 1922, éd. 1949, p. 353.

القرن الثامن عشر، التي اشتغل عليها العربى مزين، أن العلاقات بين الطرفين هي علاقات متغيرة بحسب الشروط البيئية والضرورات التجارية والظروف السياسية. فهي علاقات متوترة تارة، وعلاقات سلمية تارة أخرى، في شكل تحالف في بعض الأحيان<sup>(١)</sup>.  
لهذه الأسباب يميل الدارسون إلى مسألة التكامل الاقتصادي. نحن نعلم أن الترحال لا يتناسب وادخار المنتجات الزراعية. والحال أن الناس يحصلون على هذه المواد بواسطة التبادل، إذ يقتنى الرحل مواد الزراعة في مقابل مواد الرعى. وأحيانا يقدم الرحل خدمات جلييلة للمزارعين في أوقات الجفاف والقحط بتوفير ما تجود به الماشية من أغذية، كما حصل سنة ١٦٥٩م عندما انتشر الجوع في أوساط مزارعى الواحات في الجنوب الشرقى من البلاد<sup>(٢)</sup>. وكان يحصل أيضا أن تتحول الواحات إلى مراكز يخزن فيها الرحل ما يملكونه من زرع ومواد أخرى<sup>(٣)</sup>. كما لعبت الأسواق الأسبوعية، المقامة عادة عند قدم الجبل، دورا مهما في التقريب بين أصحاب الزرع وأصحاب الضرع<sup>(٤)</sup>.

## ٢ - تنقلات سياسية واجتماعية: البحث عن التوازن

ساهمت السياسة القبلية التي نهجتها السلطة المركزية قبل الاستعمار في تنقل القبائل من منطقة إلى أخرى، إذ كانت الدولة تسعى، من خلال عملية ترحيل البشر للانتشار أو الاستقرار في مجالات جغرافية أخرى، إلى إعادة ترتيب الأمور الترابية بحثا عن توازن سياسى وعسكرى، وكانت هذه السياسة قد حددت ملامح كثيرة من التاريخ السياسى والاجتماعى للمغرب.

(١) العربى مزين، منطقة تافيلالت. مساهمة في تاريخ المغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، الرباط، ١٩٨٧م، ص ٢٧٠ - ٢٧١، ٢٧٣ - ٢٨٠.

(٢) محمد أعغيف، منطقة توات في القرن التاسع عشر، رسالة جامعية مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٢م، ص ١٤٩ - ١٥١.

(٣) B. ROSENBERGER, Société, pouvoir et alimentation au Maroc précolonial, Rabat, 2001, pp. 57 - 58.

راجع أيضا أحمد ميزان، فكيف، مساهمة في دراسة المجتمع الواحى، ١٨٤٥م - ١٩٠٣م، الرباط، ١٩٨٨م، ص ٢٠٣ - ٢٠٤، ٢١٠.

(٤) راجع دراسة جون فرانسوا تروان الجغرافية حول الأسواق ودورها الاجتماعى والاقتصادى:

J. F. TROIN, Les souks marocains. Marchés ruraux et organisation de l'espace dans la moitié nord du Maroc, Aix - en - Provence, 1975.

لقد شكلت القبيلة وحدة اجتماعية وسياسية في الوقت نفسه. فمن الناحية الاجتماعية تميزت القبيلة في المغرب بتعقيد كبير، وتباينت بنيتها بتباين انتمائها اللغوي والإثني (عربية أو بربرية)، ونمط عيشها (مستقرة أو متنقلة)، علاقتها بالدولة (عسكرية حليفة للدولة أو خاضعة للجباية)، أما من الناحية السياسية فقد كانت القبيلة، بالنسبة للدولة أداة سياسية وعسكرية لخلق نوع من التوازن في تدبير الشؤون الترابية للبلاد<sup>(١)</sup>. لقد تناول الباحث الأنثروبولوجي إرنست كيلنر هذا الموضوع، مركزا على علاقة الدولة بالقبائل من خلال رسم جبايئ وسياسى، لا يخلو من أهمية، وهذا الرسم يقوم على ثلاث دوائر متراكزة: دائرة أولى، وهى دائرة داخلية مركزية، تمثلها القبائل الحليفة للمخزن، والتي تقوم بجباية الضرائب، وينعتها كيلنر بـ «كلاب الحراسة»، ودائرة ثانية، وهى دائرة وسطى، تتمثل فى القبائل الغارمة، التي تحرسها قبائل المركز، ويصفها بـ «القطيع»، وأخيرا، دائرة ثالثة، وهى دائرة خارجية، تتمثل فى القبائل الراضة للسياسة الجبائية للمخزن، وينعتها بـ «الذئاب»<sup>(٢)</sup>.

ويرى عبد الأحد السبتي، وهو يقارب هذه الاستعارة، التي تُذكر ببعض الصيغ الماثورة فى كتب الآداب السلطانية، أن هذا الرسم كان يعرف فى بعض الأحيان انقلابا فى الأدوار، لاسيما بين دائرة المركز ودائرة الخارج، خاصة خلال القرن التاسع عشر، مع «مفارقة ظاهرة الطرف القريب من المركز، والبعيد مجاليا عن موقع الهامش». فبالقرب من مدينة فاس كانت قبيلة غياثة تشكل مصدر قلق كبير بالنسبة للمخزن، خاصة فى الأوقات التي تغتر فيها سلطة هذا الأخير، وبالقرب من مدينة مكناس كانت قبيلة بنى مطير تضيق على أهل المدينة وتنهب أسواقها، وبالقرب من مدينة الرباط كانت قبيلة زعير تغير على المدينة وتعيث فسادا فى الطرقات والجنان<sup>(٣)</sup>.

تشير المصادر الإخبارية، العربية بشكل خاص، إلى هجرات قبلية هائلة تمت فى سياق هذه السياسة الجبائية والاستراتيجية الرامية إلى إعادة ترتيب تحالفات السلطة المركزية

(١) محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، المجتمع والدولة والدين، تعريب محمد حبيدة، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء/ بيروت، ٢٠٠٦م، ص ٢٤ - ٢٦.

E. GELLNER, Saints of The Atlas, London, 1969, pp. 1 - 5.

(٣) انظر عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق فى مغرب ما قبل الاستعمار، الرباط، ٢٠٠٩م، ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

مع القبائل وتوازنات البلاد. لقد كانت الدولة، أو ما يعرف بالمخزن فى التاريخ السياسى للمغرب، وهى تسعى إلى تكسير شوكة القبائل، وتقليص نفوذ الزعماء، من جهة، ودعم نفوذها من جهة ثانية، تجبر القبائل على هجرة أراضيها والتنقل إلى أراض أخرى بعيدة. فبأمر من السلطان وتحت التهديد العسكرى كانت قبائل بأكملها تُهجر، وتُقسّم إلى عدة كيانات أو قيادات، وتُوزع على مجالات شاسعة فى بعض الأحيان.

يصعب على الباحث تتبع هذه الهجرات، وضبط مراحلها، ورسم اتجاهاتها، لأن المصادر لا تمكن من ذلك بصفة منسقة. لكن الخطوط العريضة لهذه الهجرات التى كانت تتم بإيقاع بطيء وفى شكل مجموعات صغيرة<sup>(١)</sup>، تبقى ممكنة، بحسب ما تتيحه الإخباريات. لئأخذ مثلاً قبائل منطقة الحوز، المجاورة لمدينة مراكش خلال القرن الثامن عشر، التى كانت تشكل مصدر قلق سياسى وعسكرى. فقد رحّل المخزن قبائل زرارة وشبانات إلى منطقة بنى يزناسن فى شمال شرق البلاد، بعيداً عن أراضيهم بحوالى سبعمئة كم. وهجر المخزن أيضاً قبائل أولاد أبى السباع إلى منطقة سوس جنوباً، ثم بعد ذلك إلى الصحراء، وقبائل مجاط إلى السهول المجاورة لمدينة فاس، وقبائل أيت يمور إلى سهل تادلة<sup>(٢)</sup>. لقد حرمت السلطة المركزية قبائل كثيرة من أراضيها الخصبة ورُحلت إلى مناطق أخرى لإرضاء قبائل حليفة تم استقدامها إلى هذه الأراضى<sup>(٣)</sup>، أو لمضايقة قبائل أخرى معادية. هذا ما حصل، على سبيل المثال سنة ١٦٧٩م، لما قام السلطان إسماعيل بنقل «عرب الشبانات وزرارة من الحوز... وأنزلهم بوجدة ثغر المغرب، وكتبهم فى الديوان، وقيد عليهم العياشى بن الزوغر الزرارى، وأمره بالتضييق على بنى يزناسن، إذ كانوا شيعة الترك، فكانوا يغيرون عليهم، ويمنعونهم من الحرث فى بسائط أنكاد»<sup>(٤)</sup>.

لقد شكلت عمليات ترحيل القبائل ظاهرة سياسية وعسكرية كبيرة على مدى تاريخ المغرب، إذ ارتبط قيام الدول المتعاقبة على الحكم بحركة القبائل وتنقلاتها، منذ دولة

(١) نفسه، ص ٢٦٣.

(٢) انظر أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، مرجع سابق، ص ٣٤؛ محمد بن أحمد أكنسوس، الجيش العريم الخماسى فى دولة أولاد مولانا على السجلماسى، مخطوط الخزانة الوطنية بالرباط، د ٩٦٥، ص ١٣٣.

(٣) عبد الأحد السبتي، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٤) أبو القاسم الزياني، البيستان الظريف فى دولة أولاد مولاى الشريف، تحقيق رشيد الزاوية، الرباط، ١٩٩٢م،

ص ١٦٣.

الموحدين الذين رحلوا قبائل بني هلال من إفريقية إلى السهول الأطلنطية في القرن الثاني عشر، ومرورا بدولة بني مرين، الذين كانوا في الأصل قبائل رحل قبل أن يستقروا في منطقة فاس، ودولة الأشراف السعديين الذين جروا معهم، في زحفهم نحو مدينة فاس، في أواسط القرن السادس عشر، قبائل معقل العربية وأنزلوهم بمنطقة الغرب، وانتهاءً بالسلطين العلويين الذين هجروا قبائل حوز مراكش إلى الجهة الشمالية الشرقية للبلاد في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ففي عهد السلطان إسماعيل (١٦٧٢م - ١٧٢٧م) كانت هذه السياسة قد أصبحت ممنهجة لترتيب تحالفات الدولة مع القبائل، ومضايقة قبائل أخرى لتحقيق نوع من التوازن في تدبير شؤون البلاد<sup>(١)</sup>.

ولتوضيح صورة هذه السياسة القبلية على عهد العلويين قبل المرحلة الاستعمارية نورد نموذجا للعلاقة التي كانت تجمع بين السلاطين وقبائل أيت إدراسن، إحدى أبرز الاتحاديات القبلية البربرية. ففي نهاية القرن السابع عشر كان السلطان إسماعيل قد استطاع إخضاع هذه القبائل، إذ نزع سلاحها وثبتها في الأراضي المجاورة لمدينة مكناس، وكلفها بحماية الطريق الرابطة بين فاس وتافيلالت، مقابل امتيازات جبائية<sup>(٢)</sup>. وبعد وفاة هذا السلطان ناصرت هذه القبائل، خلال القرن الثامن عشر، السلطانين عبد الله ابن إسماعيل، وخلفه محمد بن عبد الله، إذ أصبح أيت إدراسن «برابرة الدولة وتحت قهرها وغلبتها» على حد تعبير الإخباري أبو القاسم الزياني<sup>(٣)</sup>. وفي نهاية هذا القرن، وفي ظروف النزاع على الحكم بين الأمراء، لعبت اتحادية أيت إدراسن دورا كبيرا في انتقال الحكم إلى السلطان سليمان. لكن اللافت للانتباه هو أن هذا التحالف الذي دام لأكثر من قرن تغير بتغير مجرى الأحداث السياسية والعسكرية، إذ أدار هذا السلطان ظهره لهذه القبائل في مطلع القرن التاسع عشر، وتحالف مع قبائل بني حسن العربية<sup>(٤)</sup>.

والجدير بالذكر أن انعكاسات هذه السياسة القبلية على الحياة الزراعية كانت سيئة للغاية. فكلما انطلقت حركة التهجير هذه اندلعت أزمة فلاحية كبيرة، لأن مناطق الاستقبال

(1) F. De LACHAPELLE, «Le sultan Moulay Ismail et les tribus Sanhaja du Maroc central», Archives Marocaines, vol. 28, 1931, p. 29.

(2) عيد الأحد السبتى، بين الزطاط وقاطع الطريق، مرجع سابق، ص ٢٧١.

(3) أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى، مرجع سابق، ص ٧٥.

(4) حول هذه السياسة القبلية المتقلبة راجع:

محمد المنصور، المغرب قبل الاستعمار، مرجع سابق، ص ١٨٠ - ١٨١.

كانت تتعرض للنهب، فيضطر أصحاب الأرض للهجرة بدورهم نحو أراض أخرى. وبذلك يتضرر الاقتصاد القروي برمته، إذ تضطرب الدورة الزراعية، وتفسد عملية الإنتاج، وتنهب المدخرات، ويتوقف تزويد السوق بالمنتجات الفلاحية، وتسوء أحوال الأسر، وتكثر المآسى. ولنا في مصنفات فقه النوازل شهادات كثيرة حول هذا الموضوع<sup>(١)</sup>.

كانت القبائل المكروهة على الهجرة تسعى في مناسبات كثيرة، لاسيما في الأوقات التي يفتر فيها نفوذ المخزن، إلى العودة إلى أراضيها الأصلية. وقد تسبب هذا الأمر في قلاقل سياسية وعسكرية كثيرة. نقرأ في مراسلة القنصل الفرنسي بالمغرب، لويس شيني، بتاريخ ١٨ أكتوبر ١٧٧٨م ما يلي: «قبيلة من قبائل منطقة الحوز في الجنوب، التي كانت قد هجرت في الماضي أراضيها الخصبة، وشقتها المخزن في أراضى رديئة بمنطقة تامسنا بالقرب من الرباط، تقوم اليوم ببعض المحاولات للرجوع إلى أراضيها الأصلية»<sup>(٢)</sup>. لكن عندما تتمكن القبائل من تحقيق هذه الرغبة وتعود فعلا إلى الأراضى الأصلية تصطدم بمشكلة أخرى، لأن هذه الأراضى تكون قد عمرتها قبائل أخرى نازحة من منطقة مجاورة. وهكذا تتعقد الأمور. ففي مرحلة أولى تدلى القبيلة العائدة بمختلف الحجج والشهادات، الشفهية في الغالب، لاسترجاع ممتلكاتها، وفي مرحلة ثانية ينشب الصراع بين الأطراف المتنازعة، وتتوسع دائرة النزاع عندما تتشعب التحالفات بين القبائل بعضها مع بعض من جهة، وبعضها ضد البعض الآخر من جهة أخرى. وإذا تدخل المخزن لمساندة هذه القبيلة ضد تلك تقوم الحرب وتدخل البلاد في وضعية سياسية معقدة<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد العزيز الزياني، الجواهر المختارة مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، د ١٦٩٨م، ج ١، ص ٢٨١، ج ٢، ص ١٠٦؛ أحمد الرسموكي، فتاوى علماء جزولة، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، ك ٧٢٥، ص ٨٦؛ عيسى السكتاني، النوازل، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، ج ١٠١٦، ص ١٣٧ - ١٣٨.

(٢) L. GRILLON, Un chargé d'affaires au Maroc. La correspondance du consul Louis Chénier (1767 - 1782), Paris, 1970, p. 697.

(٣) انظر محمد العريسي بردلة، النوازل، طبعة حجرية، فاس، ١٣٤٤ هجرية، ص ١٠١. بالإضافة إلى حركات التنقل هذه، المرتبطة برهانات سياسية واستراتيجية، يمكن ذكر الأزمات البيولوجية، ولاسيما الأوبئة، التي كانت تتسبب في هجرات جماعية كبيرة كما حصل مثلا سنة ١٦٢٧م لما «هاجرت أكثر من سبعة آلاف عائلة مدينة مراكش هربا من الموت» حسب شهادة أبي زيد عبد الرحمن التمارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخطوط الخزانة الوطنية، الرباط، د ٣٦٩٣، ص ٣٤. راجع أيضا بخصوص وباء ١٦٧٩م - ١٦٨٠م: أبو القاسم الزياني، البيستان الطريف، مرجع سابق، ص ١٦٣.

يمكن القول، بناءً على ما تقدم، إن الترحال لم يكن ظاهرة بنيوية فى تاريخ المغرب. لقد ارتبط بضرورات إيكولوجية وباكراهات سياسية واجتماعية. إن ما تؤكده معظم الإشارات التى توفرها النصوص التاريخية هو ارتباط أهل القرى بالأرض. كلما كانت الموارد الطبيعية كافية، وكلما كانت الظروف السياسية والاجتماعية مواتية، كلما أبدى الناس رغبة أكيدة للاستقرار وحرث الأرض ورعاية البهائم فى المدار المجاور لمقر سكناهم. ويبقى أهم مثال على هذا الأمر، الذى يربط الماضى بالحاضر، هو قبائل زمور وقبائل زعير المستقرة فى الوقت الراهن بمنطقتى مكناس والرباط، التى كانت بالأمس القريب، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، من القبائل الرحل المتنقلة فى مساحات جغرافية شاسعة.

